وداعاً ولدي الحبيب [١]

سهى عبد الحميد القضماني

يا إلهي ... ماهذا الألم ؟ كيف دخلت هذه الصاعقة أنفاق عظامي ؟ ... ما هذا البرق الذي ينفخ بين حين وآخر لمعانه ليخترق أعماقي ؟ عاصفة تتغلغل بي وتوقظ فيَّ كل نبض وكل عرق ، روعة هذا الوجع أبلغتني أن الجنين يوشك أن يغادر رحمي... ويا لها من معركة صارمة... صهيل خيول أصيلة تجول على ساحة عروقي... جيش مدرب بفطرته على النصر التام... ورغم أنه انقطع من كياني يقاتلني ليُبرز للوجود كتلة من جوارحي لا يعنيه كم من الألم احتمل... وكم من الوجع يبث مشاعره ، والأغرب من هذا كله أنني أدعمه بوجعي وذوباني ليحقق غايته ويؤدي مهمته... هاهو يطرق أبواب جوارحي ليخرج من بئر أمومتي وقد تجرع ماء رحمي... وروى ظمأ تكوينه ليخرج لأداء مهمته... ويا لها من معجزة

بلى ربي... أحس وأرى (**وَفِي أَنفُسِكُمْ أَفَلا تُبْصِرُونَ**) [٢] ما أشد تكريمك لي ربي أن خلقتني امرأة ، جوارحي من الأعماق تبصر هذه المعجزة ، كلي متهيبة لاستقبال هذا الإنسان بأمرك له كن فكان فيَّ... وها هو قادم مني إليَّ... خمسة أعوام وأنا في دعاء متتابع وانتظار حميم وشوق غزير... وها هي الطلقات تدربني

(1) فجعت الجالية المسلمة في ألمانيا بفقد عزيزٍ عليها وهو الإبن الأكبر " طريف " لأسرة مؤمنة داعية إثـــر حادث سيارة أليم ؛ وأسرة الرائد تدعو للوالدين الدعاء الدائم الصادق بأن يرزقهما الصبر الجميل والأجـــر الجزيل معبرة عن عواطفها بقلم الكاتبة.

(2) سورة الذاريات آية رقم ٢١

على تحمل كل ما هو شاق وموجع... لأني سأكون صاحبة الملحمة المعتقة... إنها الأمومة أنبل مهمة ، للمرة الأولى أتعرف على قوة هذا المخلوق المرأة . ما أروع هذه القدرة على التحمل ... بلى إذا كان ضعف الأنثى بهذه القوة التي لا يقدر الذكر تحمل جزءاً منها فلا بدّ أن ضعفها هو قمة قوتها .

بلى تلد المرأة إناثاً وذكوراً هي الأرض الخصبة الثرية هي سيدة الولادة ، ما أخصب عطائها وما أروع ماهية احتوائها وأجمل آلامها وما أعظم تشريف الله لجنسها. وتأكيد رسولنا الحبيب صلى الله عليه وسلم لحقها .. أمك .. ثم أمك .. ثم أمك .

كانت لصرختكَ الأولى دبيب في مسامعي ... طرحتْ عليَّ سؤالاً لماذا تبدأ حياتك بالبكاء ؟ يا ترى ؟

كانت فرحتي بك طريف لا تماثلها فرحة وعلى أني رزقت بأخوتك يبقى طعم الولد الأول هو الطعم الأول .. منك وفيك تعرفت على هذا العالم الساحر: البنوة... العالم الذي يحمل معه ما يحمل من الأسرار والأحداث والأقدار . اغمض حواسي لأتذكر عشرين عاماً من حياتك وحياتي معك كأنها لمحة ... كأنها غفوة كأنه حلم قبل قليل ، كنت تتغذى من مشيمة إنسانيتي مستقراً في أعماقي ، ثم رمتك القابلة فوق صدري لتسمع دقات قلبي فلا تجزع لسلخك مني. قبل قليل تمتص بشفتيك قطرات ترضع معها خلاصة جوارحي وعمق محبتي ، إلى أن أبلغتني أسنانك بصرامتها أن مهمتي الثانية انتهت ، وأن أوان فطامك اقترب ، ما كنت أتصور أن حياة الولد مع أمه كلها كرضاعته... فترة يسيرة مهما كانت طويلة ، التاريخ ماحدثنا قط عن فتى رضيع أو رجل رضع ، كلٌ فطمتهم أمهاتهم أو فطموا أنفسهم .. ها أنت تزحف وتعبث بالأشياء ، ها أنت تعطي قدميك أمراً بالوقوف لتتجول بها في أركان

البيت ... ها أنت تمسك بيدي لتتبعني ... ها قد استويت وتمضي بجانبي... ها قد اشتد عودك وكبرت ... أصبحت قامتك أطول من قامتي ها أنا اتبعك وأجري وراءك.

تربية اليوم جهاد بلغ ما بلغ من صعوبة تكاد تكون فتنة وابتلاء ، وتربية الأبناء في بلاد الغرب مجاهدة ومصابرة للمربي وللمربى لأنهم يجدون أنفسهم كالحبل المشدود من طرفين ... طرف دينهم ، مبادئ أسرهم ، منظومة أخلاق ، يحتاج تبنيها لقوة قد لا يملكون بعضاً منها ، طرف مصبوغ بلفظ الأقلية ... ومن الطرف الآخر مجتمعهم الكبير .. مسقط رؤوسهم ، نشأ بينهم وبينه صلة قربى ، يألفهم يحاكيهم ، لا يطلب منهم أن يكونوا إلا كما يكونوا.

قد تتوازى قوة الطرفين وكلاهما يحاول الشدّ أكثر ، قد يميل لطرف دون آخر ، وهذا يتطلب من الطرف المائل الشدّ أكثر ، وقد يتأرجح بين هنا وهناك حسب من يضعف ويقوى .. وقد تتعادل القوتين فتجد الخيط مشدوداً يوشك أن ينقطع نصفين ووجع الخيط يحاكي اليد الذي تشده إليها لخوفها عليه... في المحصلة كلاهما متعب الخيط واليد المؤتمنة وكم وكم وكم هربت خيوط من أيدينا أو هربت أيدينا من مسك الخيوط !!

كانت فرحتي لا توصف عندما تأتيني برسمة جميلة أو كلمة تعلمت أن تلفظها أو تكتبها ... أذكر أن يومك الأول في المدرسة شعرت به كأنه أعوام ، لم أكن أدري يوم ضممتك وعصرتك بين ضلوعي أنك أبداً لن تبقى فيها... مشاهد هذا الحلم كثيرة وغزيرة.

كم وكم وكم دقّ قلبي عند كل منعطف من نموك .. أشدها عندما بدأ صوتك يشبه صوت أبيك ... كم كنت أخاف على دينك وخلقك ، اجتهدت ما

استطعت ... والبنات يحجبهن الحجاب ... وحجاب الأولاد غض بصر القلب والعين عن كل محرم وقبيح ... مجتمع يتعامل معهم باستقلالية مدهشة وإباحية غير مسؤولة ابتداءً من النوادي والمدارس وانتهاءً بالجامعات والشركات والبنوك ... لقد قالتها جداتنا في الماضي (المال الداشر يعلم الأمين السرقة) ... كانت فرحتي كبيرة عندما أنهيت الثانوية ونضجت أكثر في خدمة الجيش بتسونامي [1] ... متفتحاً مع الكل ، أصدقاؤك وما تجمعك بهم من الألفة والعفوية والقاسم المشترك الزمان والمكان...

ومحبتك لأخوتك في الدين والهمّ المشترك ؛ الدعوة والحفاظ على الهوية مع أن هوية الآخرين تقتنيها وتعرف شخصك بها.

وخطيت في الدعوة خطوات وأنت مشدود تعاني ما يعاني كل أولادنا الذين يشعرون بالمسؤولية والجدية هماً له بصمة مطبوعة على وجوههم ... وكلما خرجت من البيت يسافر جزء كبير مني معك ولا أستقر حتى تعود ... دائمة الخوف عليك ... على عذريتك ... على استقامتك ... على عفويتك ... على صدق مشاعرك ... على سنك الحساس الخطير القاطن في مساحات شاسعة لا تحدها حدود ولا تعرف الخطوط الحمراء

كان آخر خروج لك عندما ركضت مسرعاً ... وعندما بدأت افتقدك أمسكت الجوال لتناديك كل جارحة بي حتى رؤوس أصابعي أحسّت برحيل آخر نبض من سكن أصابعك ... ما كنت تقدر على الإجابة أبداً ... وعقرب الساعة يمر

(1) قضى طريف فترة من خدمة الجيش الإلزامية في منطقة التسونامي بعد حادثة الطوفان المعروف

على قلوب الكل مرور الكرام إلا على قلب الأم شمعة تذوب بحلم ودأب لأن فتيلتها هي ... هي المشتعلة ... الأم الملحمة.

طُرق الباب ... ها قد عدت ... هدأت هدوءاً لم يطل ما كنت أنت كانوا رجال الشرطة ... على أن مهمتهم متابعة السارق والهارب والمخالف واللص والمشاغب ، وجوههم تنذر بأمر مريب – هل إبنكم طريف ؟-

– ما الأمر هل حصل له مكروه ؟؟!!

– ابنكم نُقل إلى المستشفى لقد جرى معه حادث خطير جداً عندما كان يقود السيارة ، كاد قلبي يقع على الأرض لولا أني تحنطت بالخبر

– هل هو بخير أريد أن أراه !!

– لا سيدتي ليس الآن ... الوقت متأخر ، غداً صباحاً

– لا الآن ! لعله يحتاج كبد ؛ أعطيه كبدي ... يحتاج دم ؛ خذوا كل دمي

– في الحقيقة ... ابنكم مات

انفجرت شظايا الخبر في كل أركان البيت ، وارتمت مكدّسة في أصداء جوارحي ، ابني أنا ... طريف مات ، بكى أبوك بكوة مفاجأة المصيبة ، وزعقت أمومتي في ذاتي ، وتعطل في حواسي معنى بقائي ، على يميني جذوري زوجي ؛ الأبوة المنصهرة بالنبأ الرهيب ، وعلى شمالي طيفك الغائب يوماً الموجود أبداً ، وفيَّ دبت مصيبة الموت واقتلعت جذور أمومتي من أعماق إنسانيتي ، توجعت وقد هوى أكبر أغصان شجرتي فوق صدر يناديك بحب ... بحب غزير ... ولدي وما عدت أرى الأشخاص إلا أخيلة.

– أريد أن أرى ولدي الآن ... لعله لم يمت.

– تدخل أحدهم بصوته الحازم كأنه يصدر أمراً ... لا بد أن تراه إنها لن تهدأ أبداً ...

في هذا اللحظة وأنا بين الموت والموت ، استشعرت عظمة إسلامي وتفرده بما لا يملكه أحد سواه ، الاسترجاع ضمني ، وقف حائلاً بيني وبين شللي ... – إنا لله وإنا إليه راجعون –

كم وكم قرأتها !! كم وكم سمعتها !! ... كأنها تتنـــزل عليَّ وليَّ الآن.

دبّت الشفقة في نفسي على زوجي ضممت حزنه الشديد لأستمد منه بعض القوة ...

كل شيء يعوض إلا أنت ... استرد الله فرع من فروعنا وأبقى لي الأصل أنتَ.

أهدئ من روعه ، والطائر المذبوح ينتفض في زوايا نفسي لا يهدئه أحد .. إلا الواحد الأحد.

حملنا أقدامنا ولم تحملنا أقدامنا ... وسرنا على دقات قلوبنا لنصل حيث أنت ... ممدوداً على السرير البارد ... مغطى بلون الموت الأبيض ... ما أكثرها تعددية أثوابك ، يا موت ترتدي ما تريد ، كيفما تريد ، متشعب القزحية ... متسع الأشكال متعدد الوجوه ... غير متناه الحجوم ... لكنك أنت أنت !! لا تعنيك هوية الإنسان ولا عمره ... لا مهمته التي يؤديها ولا ما وراءه ... لا يعنيك حتى من يحبه وسيفتقده ... لايعنيك إلا أنك تريده. ما أسرعك من ساعي بريد يتقن عمله ... لست بمتعدد النظرات ولا تختلف عندك الآراء ولا تتردد في اتخاذ القرار ... لاشورى ، لا تفكر ، لا التفات إلى الوراء ... جندي مأمور ... زمن مبهم وفيك كل الزمن. موعد مجهول وفيك الحقيقة العالمة.

كشفنا الغطاء ... بلى هذا هو الوجه الذي أحبه ... أنت ابني بلحمك ودمك طريف ! إنك أنتَ ! عندها فقط صمتت أمومتي ، قبلتكَ ! وأبتْ شفاهي أن تنتزع من على وجنتيك ، أرادت أن تلتصق بك لتذهب معك ، لكنها من حرّ المصيبة ابتعدت عنك حتى لا تدمغك بطعمها فتحرقك ... أتدري طريف كم أحبك .

أتدري ولدي كم سأفتقدك .

نزل الخبر كالصاعقة ... الشاب الوسيم الذي استوى ... ذروة فتوته ... قوته ... عنفوان شبابه .. جماله ... كل شيء رفع يديه واستسلم لملك الموت في لحظة.

أسئلة كالأطنان ... من كان يقود السيارة ... متى ؟ ... كيف ؟ ... علام ؟

كتبت الصحف ... عرض الإعلام المشهد كله ... وأدلى كلٌ بدلوه يُحلل .. يتحزر .. يفسر ما جرى في الحقيقة

تعددت الأسباب والموت واحد ... أجمل مسمى .

عدنا إلى البيت أخذت أتجول في أرجائه .... أتدري طريف !

كأن أمك تبحث فيه عنك ... أحقاً كل ماجرى ؟ ، ولدي الذي كان حاضراً بيننا رحل واختفى من حياتنا .

حقاً إلى هذا الحد الموت أقرب إلينا من حدود نعالنا .

أحبس الأنين في زنزانة شفتي فلا يتسع له المكان وينفذ صوته عبر الجدران .. أحبك طريف...

أحقاً ولدي رحلت وصمتَّ في لحظة ؟!

أحقاً فارقتني روحي في لمحة ؟!

هُدِرَ عليك الماء ... عُرِيْتَ وكفنّتَ في خرقة
أحقاً تحتمل الأم فيَّ هذه الكارثة الكبرى ؟!
كنت البارحة بين يدي أغسلك خفيفاً حبيباً واليوم قوياً صامتاً

وعندما نادوني لأودعك ، عطرتك بما احضرتَ معك من مكة ... عطرتك بزمزم لأذكّر نفسي بأن سعي بين صفا زوجي ومروة أولادي لم ينتهِ بعد

وتأملت ملامح الأيام الستة التي صمتها تلف وجهك بسكينة ما أجملها ... وعندما حُزمت بأكفانك رأيتني كأني أعدّك لأزفك إلى حورية .

صلينا عليك صلاة الجنازة ... كانت ولدي حفل تكريم أعلنت فيه جارتنا اليهودية إسلامها لتقدمه في حفلك كأثمن هدية .

وقف أبوك على حزن أبوته القاهر ، على وجع الوداع المستقر في رجولة أحبت من ثغرك صوتاً عذباً ينادي بابا ... وقف وقفة الجبابرة ... رجال نشأوا في طاعة الله ... وحملوا على عاتقهم مهمة التبليغ .. وكان الجمع الذي تحلم به .

البعض مع البعض مع البعض ككل ، امتلأ المكان بكل المحبين ومضينا وراءك نصطحبك إلى محطتك الأخيرة.

دفنا هنا آباء وأمهات وها نحن ندفن أبناءنا في مقابر هذه البلاد ، وما زال أغلبنا يستخير الله بالبقاء هنا أم العودة إلى ديار قيس وليلى ، ها قد غدت هجرتنا إلى هذه الأرض مؤكدة ، أصبحنا فوقها وتحتها ، وتوحدت في مآقينا الدموع سيان البكاء على الأطلال والبكاء من جبروت الموت وفراق الأحبة ، وفي نهاية المطاف ما نال قيس ليلى ، وإذا كنا والحياة تدب في أوصالنا نبلغ الغرب رسالة لا تصل فها هي جنائزنا تبلغ الرسالة المسجلة بصمت لتصل.

الجميع ناطقين بكل اللغات ... ملونين الجبهات .. على اختلاف ما يعتنقون من أديان ، وعلى اختلاف ما تحمله جيوبهم من هويات ، مضوا وراء صندوق شاب من الجيل الثالث أو الرابع ... نشأ هنا ، وخدم الجندية ، وترعرع هنا ، في ألمانيا وطنه والألمانية لغته الأم. رضينا أم لم نرض ... بررنا أم قررنا ... نحن الشرقيين والشرقيات أولادنا غربيين وغربيات وفي بعض أحوالهم أنصاف غرب وشرق ... الغرب والشرق يقف أمام الموت باكياً خاشعاً متهيباً .. مستسلماً

عُرفنا منذ زمن أننا أهل الجماعة ، كيف ستكون جماعتنا هنا بعد ربع قرن ؟ قزحية الألوان ، بُصِمَتْ بنسيج واحد : الإخاء في الإنسانية والعيش بسلم وسلام ... فيها صوت الإسلام الذي يعلو : أسلموا هلموا إليَّ أنا دين العالمية ...

وعلى محبتي لك ولدي وقفت مع المشيعين متفرجة ... بعلم غيبه بقهر إرادته استَردكَ مني ، وضعوك في حفرة أتدري طريف كم عمقها في فؤادي ؟ ... عشرات الرجال يتناوبون ... يرمون فوقك ستائر التراب يخفونك عن نظري أنا أمك ليحتويك رحم أمك الحقيقية الارض ... هذه الأم فوق الأحلام والأماني ، لا تحلم مثلي بالأمومة ولا تتشوق لها ، لإنها الأم المؤكدة ، الأم الصلبة التي لا تعرف الوهن على الوهن ... أم الأمهات بلى ... الأرض ... أمي وأمك .. وعندما انتهى دفنك واختفيت عن نظري فيها ، عرفت لماذا بكيت عندما أتيت إليها لأنك في يوم ستدفن تحتها لحملٍ كهذا يجب أن نعد العدة . حملي فيك انتهى بموتك وحملك فيها سينتهي بحياتك وانتهت الحكاية ... ولكل حكاية بداية ونهاية ، وحكاية الموت بداية ليس لها نهاية.

الموت ولادة ميزّنا الإسلام بها عن سوانا أن الكل يتمرد عليها ونحن نبكي منها ونركن إليها ... نستسلم لها وننمو بآثارها ... ولدي الحبيب .... الله وحده البصير

بقلبي المختوم بدمغة الفراق المفاجئ... والأم فيَّ ذائبة من الشوق إليك لكن حزني العميق مدموغ بالرضا ... لقضاء الله وقدره ...

طريف رحلت حبيبي دون وداع ... دون إعلام ... دون حقيبة تحزم ... دون قبلة ... أو مصافحة ... أو ضمة حامية ... خرجت و لم تعد ، سأدعم مصابرتي بيقيني عسى الله أن يجمعنا في بيت الحمد ، أسكنه معك ... أتدري سعادتنا ونحن نقطن فيه ؟ جدرانه لا تبلى ... أركانه لا تقع بزلزال أو هزة ، لا نفارق فيه الأحباب ولا يغيب عنه الأرباب .

لقد علمتني حياتي الكثير وعلمني موتك الأكثر ، في لحظات حياتك الأولى عرفت سر بكاؤك ، فاجعلني اللهم زاهدة بكل ما عداك ...

موتك ولدي لي عبرة علمتني أنني لست أكثر من مرضعة من قطرات دمي ... من فكر عقلي ... من فرط محبتي ... مرضعة إلى أجل مسمى ... وإلى أن يحين أجل الفطام الحق مربية فاطمة أو منفطمة .

جسر يمشون فوقه على مختلف أثقالهم وأوزارهم وأحمالهم يعبرون عليها المرحلة ويبلغونها أنهم في حياتها زائر وزائرة وأنها مجرد عابرة ... مسافرة فاجعلني اللهم زاهدة بكل ما عداك

عزاؤنا في جولة التربية أننا اجتهدنا مأجورات أصبنا أم أخطأنا

عزاؤنا أن جولة السعي في إطار ديننا ستكون دائماً جولة رابحة.